(٣٦) سورة يس مكية و هى ثلاث و ثمانون آية (٨٣).

[سورة يس (٣٦): الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

(بيان)

غرض السورة بيان الأصول الثلاثة للدين فهى تبتدئ بالنبوة و تصف حال الناس فى قبول الدعوة و ردها و أن غاية الدعوة الحقة إحياء قوم بركوبهم صراط السعادة و تحقيق القول على آخرين و بعبارة أخرى تكميل الناس فى طريقى السعادة و الشقاء.

ثم تنتقل السورة إلى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانية ثم تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء و امتياز المجرمين يومئذ من المتقين و تصف ما تئول إليه حال كل من الفريقين. ثم ترجع إلى ما بدأت فتلخص القول فى الأصول الثلاثة و تستدل عليها و عند ذلك تختتم السورة.

قوله تعالى: «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ- إلى قوله- فَهُمْ غافِلُونَ» إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبى ص من المرسلين، و قد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرا فيه الحكمة و هى حقائق المعارف و ما يتفرع عليها من الشرائع و العبر و المواعظ. و قوله: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» مقسم عليه كما تقدم.

و قوله: «عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» خبر بعد خبر لقوله: «إِنَّكَ»، و تنكير الصراط- كما قيل- للدلالة على التفخيم و توصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم، و المراد به الطريق الذى يوصل عابريه إلى الله تعالى أى إلى السعادة الإنسانية التى فيها كمال العبودية لله و القرب، و قد تقدم فى تفسير الفاتحة بعض ما ينفع فى هذا المقام من الكلام.

و قوله: «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح، و المصدر بمعنى المفعول و محصل المعنى أعنى بالقرآن ذاک المنزل الذى أنزله الله العزيز الرحيم الذى استقر فيه العزة و الرحمة.

و التذييل بالوصفين للإشارة إلى أنه قاهر غير مقهور و غالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته و لا يستذله جحود الجاحدين و تكذيب المكذبين، و أنه ذو رحمة واسعة لمن يتبع الذكر و يخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم و كمالهم فهو بعزته و رحمته أرسل الرسول و أنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمة العذاب على بعضهم و يشمل الرحمة منهم آخرين.

و قوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» تعليل للإرسال و التنزيل و «قَوْماً» نافية و الجملة صفة لقوله: «قَوْماً» و المعنى إنما أرسلک و أنزل عليک القرآن لتنذر و تخوف قوما لم ينذر آباؤهم فهم غافلون.

و المراد بالقوم إن كان هو قريش و من يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبى إسماعيل ذبيح الله، و قد أرسل إلى العرب رسل آخرون كهود و صالح و شعيب (ع)، و إن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا إلى عموم الرسالة فكذلک أيضا فآخر رسول معروف بالرسالة قبله (ص) هو عيسى (ع) و بينهما زمان الفترة.

و اعلم أن ما ذكرناه فى تركيب الآيات هو الذى يسبق منها إلى الفهم و قد أوردوا فى ذلک وجوها أخر بعيدة عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» اللام للقسم أى أقسم لقد ثبت و وجب القول على أكثرهم، و المراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

و المراد بالقول الذى حق عليهم كلمة العذاب التى تكلم بها الله سبحانه فى بدء الخلقة مخاطبا بها إبليس: «فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ:»- (ص:- ٨٥) و المراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة و التسويل بحيث تثبت الغواية و ترسخ فى النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطابا لإبليس: «إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ:» (الحجر:- ٤٣)

و لازمه الطغيان و الاستكبار على الحق كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين و التابعين فى النار: «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ:» الصافات:- ٣٢، و قوله: «وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ:» الزمر:- ٧٢.

و لازمه الانكباب على الدنيا و الإعراض عن الآخرة بالمرة و رسوخ ذلک فی نفوسهم قال تعالى: «وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أُولئِکَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ:» النحل:- ۱۰۸ فيطبع الله على قلوبهم و من آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ:» يونس:- ۹۶.

قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ» الأعناق جمع عنق بضمتين و هو الجيد، و الأغلال جمع غل بالكسر و هى على ما قيل ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب و التشديد، و مقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رءوسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميزوها من غيرها.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» السد الحاجز بين الشيئين، و قوله: «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كناية عن جميع الجهات، و الغشى و الغشيان التغطية يقال: غشيه كذا أى غطاه و أغشى الأمر فلانا أى جعل الأمر يغطيه، و الآية متممة للتعليل السابق و قوله: «جَعَلْنا» معطوف على «جَعَلْنا» المتقدم.

قوله تعالى: «وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» عطف تفسير و تقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة و تلخيص للمراد و تمهيد لما يتلوه من قوله: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» الآية.

قوله تعالى: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» القصر للإفراد، و المراد بالإنذار الإنذار النافع الذى له أثر، و بالذكر القرآن الكريم، و باتباعه تصديقه و الميل إليه إذا تليت آياته، و التعبير بالماضى للإشارة إلى تحقق الوقوع، و المراد بخشية الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب و قبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث، و قيل: أى حال غيبته من الناس بخلاف المنافق و هو بعيد.

و قد علقت الخشية على اسم الرحمن الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء و هو الذى يقر العبد فى مقام العبودية فلا يأمن و لا يقنط.

و تنكير «بِمَغْفِرَةٍ» و «أَجْرٍ كَرِيمٍ» للتفخيم أى فبشره بمغفرة عظيمة من الله و أجر كريم لا يقدر قدره و هو الجنة، و الدليل على جميع ما تقدم هو السياق.

و المعنى: إنما تنذر الإنذار النافع الذى له أثر، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته و مال إليه و خشى الرحمن خشية مشوبة بالرجاء فبشره بمغفرة عظيمة و أجر كريم لا يقدر قدره.

قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء.

و المراد بما قدموا الأعمال التى عملوها قبل الوفاة فقدموها على موتهم، و المراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاة يتوضأ فيها، أو شر يعمل به كوضع سنة مبتدعة يستن بها أو بناء مفسقة يعصى الله فيها.

و ربما قيل: إن المراد بما قدموا النيات و بآثارهم الأعمال المترتبة المتفرعة عليها و هو بعيد من السياق. و المراد بكتابة ما قدموا و آثارهم ثبتها فى صحائف أعمالهم و ضبطها فيها بواسطة كتبة الأعمال من الملائكة و هذه الكتابة غير كتابة الأعمال و إحصائها فى الإمام المبين الذى هو اللوح المحفوظ و إن توهم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدموا و آثارهم هو إحصاؤها فى الكتاب المبين و ذلك أنه تعالى يثبت فى كلامه كتابا يحصى كل شىء ثم لكل أمة كتابا يحصى أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصى أعماله كما قال: «وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ:» الأنعام:- ۵۹، و قال: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا:» الجاثية:- ۲۸، و قال: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً:» الإسراء:- ۱۳، و ظاهر الآية أيضا يقضى بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال و الإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص و العموم و اختلاف التعبير بالكتابة و الإحصاء.

و قوله: «وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» هو اللوح المحفوظ من التغيير الذى يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه فى خلقه فيحصى كل شىء و قد ذكر فى كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ و أم الكتاب و الكتاب المبين و الإمام المبين كل منها بعناية خاصة.

و لعل العناية فى تسميته إماما مبينا أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم و كتب الأعمال كما سيأتى فى تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ:» الجاثية:- ۲۹.

و قيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال و ليس بشىء، و قيل: علمه تعالى و هو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلى كان له وجه.

و من عجيب القول فى هذا المقام ما ذكره بعضهم أن الذى كتب فى اللوح المحفوظ هو ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الآبدين و ذلک أن اللوح عند المسلمين جسم و كل جسم متناهى الأبعاد كما يشهد به الأدلة و بيان كل شىء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهى ظرفا لغير المتناهى و هو محال بالبديهة فالوجه تخصيص عموم كل شىء و القول بأن المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا.

و هو تحكم و سنتعرض له تفصيلا.

و الآية فى معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدمها كأنه تعالى يقول: ما أخبرنا به و وصفناه من حال أولئک الذين حق عليهم القول و هؤلاء الذين يتبعون الذكر و يخشون ربهم بالغيب هو كذلک لأن أمر حياة الكل إلينا و أعمالهم و آثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم و خبرة بما تئول إليه حال كل من الفريقين.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» قال: قد رفعوا رءوسهم.

و فيه، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا- فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» الهدى، أخذ الله سمعهم و أبصارهم و قلوبهم- و أعمالهم عن الهدى-.

نزلت فى أبى جهل بن هشام و نفر من أهل بيته- و ذلک أن النبى ص قام يصلى- و قد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلى ليدمغه-[1] فجاءه و معه حجر و النبى ص قائم يصلى- فجعل كلما رفع الحجر ليرميه- أثبت الله عز و جل يده إلى عنقه و لا يدور الحجر بيده- فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده-.

ثم قام رجل آخر و هو رهطه أيضا فقال أنا أقتله- فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله ص- فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال- حال بينى و بينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه- فخفت أن أتقدم.

و قوله تعالى: «وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» فلم يؤمن من أولئک الرهط من بنى مخزوم أحد.

أقول: و روى نحو منه فى الدر المنثور، عن البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس و فيه": أن ناسا من بنى مخزوم تواطئوا بالنبى ص ليقتلوه- منهم أبو جهل و الوليد بن المغيرة- فبينا النبى ص قائم يصلى يسمعون قراءته- فأرسلوا إليه الوليد ليقتله- فانطلق حتى أتى المكان الذى يصلى فيه- فجعل يسمع قراءته و لا يراه فانطلق

[1] (١) دمغه أي شجه حتى بلغت الشجة دماغه.

إليهم- فأعلمهم ذلک فأتوه- فلما انتهوا إلى المكان الذى يصلى فيه- سمعوا قراءته فيذهبون إليه- فيسمعون أيضا من خلفهم- فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلا. فذلک قوله: «وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» الآية.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال": كان النبى ص يقرأ فى المسجد فيجهر بالقراءة- حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه- و إذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم و إذا هم لا يبصرون- فجاءوا إلى النبى ص فقالوا: ننشدک الله و الرحم يا محمد- و لم يكن بطن من بطون قريش- إلا و للنبى ص فيهم قرابة- فدعا النبى ص حتى ذهب ذلک عنهم فنزلت: «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ-- إلى قوله- أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ». قال: فلم يؤمن من ذلک النفر أحد.

أقول: و قد رووا القصة بأشكال مختلفة فى بعضها أن رسول الله ص قرأ الآيات فاحتجب منهم فلم يروه و دفع الله عنه شرهم و كيدهم، و فى بعضها أن الآيات- من أول السورة إلى قوله: «فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»- نزلت فى القصة فقوله: «إِنَّا جَعَلْنا» إلى آخر الآيتين يقص صنع الله بهم فى ستر النبى ص عن أبصارهم و قوله: «وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ» إلخ يخبر عن عدم إيمان ذاک النفر.

و أنت خبير بأن سياق الآيات يأبى الانطباق على هذه الروايات بما فيها من القصة فهو سياق متناسق منسجم يصف حال طائفتين من الناس و هم الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون و الذين يتبعون الذكر و يخشون ربهم بالغيب.

و أين ذلک من حمل قوله: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ» على الناس المنذرين و حمل قوله: «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ» و «جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» الآيتين على قصة أبى جهل و رهطه، و حمل قوله: «وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ» على رهطه و أضف إلى ذلک حمل قوله: «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» على قصة قوم من الأنصار بالمدينة و سيوافيک خبره فيختل بذلک السياق و تنثلم وحدة النظم.

فالحق أن الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس و تفرقهم عند بلوغ الدعوة و وقوع الإنذار على فرقتين، و لا مانع من وقوع القصة و احتجاب النبى ص من أعدائه بالآيات.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و الترمذى و حسنه و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال": كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة- فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» فدعاهم رسول الله ص فقال: إنه يكتب آثاركم ثم قرأ عليهم الآية فتركوا.

و فيه، أخرج الفاريابى و أحمد فى الزهد و عبد بن حميد و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس قال": كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد- فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» فقالوا: بل نمكث مكاننا.

أقول: و الكلام فى الروايتين كالكلام فيما تقدمهما.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله ص: من سن سنة حسنة فله أجرها- و أجر من عمل بها من بعده- من غير أن ينقص من أجورهم شيء. و من سن سنة سيئة كان عليه وزرها- و وزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء. ثم تلا هذه الآية «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ».

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: «وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» أى فى كتاب مبين و هو محكم، و

ذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين (ع): أنا و الله الإمام المبين أبين الحق من الباطل- ورثته من رسول الله ص.

و فى معانى الأخبار، بإسناده إلى أبى الجارود عن أبى جعفر عن أبيه عن جده (ع) عن النبى ص فى حديث: أنه قال فى على (ع) إنه الإمام- الذى أحصى الله تبارك و تعالى فيه علم كل شيء.

أقول: الحديثان لو صحا لم يكونا من التفسير فى شيء بل مضمونهما من بطن القرآن و إشاراته، و لا مانع من أن يرزق الله عبدا وحده و أخلص العبودية له العلم بما فى الكتاب المبين و هو (ع) سيد الموحدين بعد النبى ص.

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٣٢]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَ ما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ

مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

(بيان)

مثل مشتمل على الإنذار و التبشير ضربه الله سبحانه لعامة القوم يشير فيه إلى الرسالة الإلهية و ما تستتبعه الدعوة الحقة من المغفرة و الأجر الكريم لمن آمن بها و اتبع الذكر و خشى الرحمن بالغيب، و من العذاب الأليم لمن كفر و كذب بها فحق عليه القول، و فيه إشارة إلى وحدانيته تعالى و معاد الناس إليه جميعا.

و لا منافاة بين إخباره بأنهم لا يؤمنون سواء أنذروا أم لم ينذروا و بين إنذارهم لأن فى البلاغ إتماما للحجة و تكميلا للسعادة أو الشقاوة قال تعالى: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ:» الأنفال:- ۴۲، و قال: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً:» الإسراء:- ۸۲

قوله تعالى: «وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ» المثل كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب، و لما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد و الوعيد أمر نبيه ص أن يضربها مثلا لهم.

و الظاهر أن «مَثَلًا» مفعول ثان لقوله: «اضْرِبْ» و مفعوله الأول قوله: «أَصْحابَ الْقَرْيَةِ» و المعنى و اضرب لهم أصحاب القرية و حالهم هذه الحال مثلا و قد قدم المفعول الثانى تحرزا عن الفصل المخل.

قوله تعالى: «إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ» التعزيز من العزة بمعنى القوة و المنعة، و قوله: «إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ» بيان تفصيلى لقوله: «إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ».

و المعنى: و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية و هم فى زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذبوهما أى الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا إليكم مرسلون من جانب الله.

قوله تعالى: «قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوة و الوحى، و يستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئا من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستندين إلى أن حكم الأمثال واحد.

و على هذا التقرير يكون معنى قوله: «وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ» لم ينزل الله وحيا و لو نزل شيئا على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك، و تعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين

معترفين بالله سبحانه و اتصافه بكرائم الصفات[٢] كالخلق و الرحمة و الملک غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير إلى مقربى خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون و الآلهة المعبودون، و أما الله عز اسمه فهو رب الأرباب و إله الآلهة.

و من الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمن فى الحكاية دون المحكى فيكون التعبير به لحلمه و رحمته تعالى قبل إنكارهم و تكذيبهم للحق الصريح.

و قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» بمنزلة النتيجة لصدر الآية، و محصل قولهم إنكم بشر مثلنا و لا نجد نحن على بشريتنا فى نفوسنا شيئا من الوحى النازل الذى تدعونه و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمن شيئا من الوحى فدعواكم كاذبة و إذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون.

و يظهر بما تقدم نكتة الحصر فى قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» و كذا الوجه فى نفى الفعل و لم يقل: إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفى الفعل فى الحال دون الاستمرار و الاستقبال.

قوله تعالى: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جوابا عن حجة قومهم ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» إلخ.

كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الأمم الدارجة لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» فردتها رسلهم بقولهم: «إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ:» إبراهيم:- ١١ و قد مر تقريره.

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلک و أنهم فى غنى عن تصديقهم لهم و إيمانهم بهم و يكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم إلى أزيد من ذلک.

فقوله: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» إخبار عن رسالتهم و قد أكد الكلام بأن المشددة المكسورة و اللام، و الاستشهاد بعلم ربهم بذلک، و قوله: «رَبُّنا يَعْلَمُ» معترض بمنزلة القسم، و المعنى إنا مرسلون إليكم صادقون فى دعوى الرسالة و يكفينا فى ذلكم علم ربنا الذى أرسلنا بها و لا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا و لا نفع لنا فيه من أجر و نحوه و لا يهمنا تحصيله منكم بل الذى يهمنا هو تبليغ الرسالة و إتمام الحجة.

---

[٢] (١) لكنهم مختلفون في تفسيرها و الصابئون يفسرونها بالنفي فمعنى العالم و القادر عندهم من ليس بجاهل و عاجز.

و قوله: «وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» البلاغ هو التبليغ و المراد به تبليغ الرسالة أى لم يؤمر و لم نكلف إلا بتبليغ الرسالة و إتمام الحجة.

قوله تعالى: «قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» القائلون أصحاب القرية و المخاطبون هم الرسل، و التطير هو التشؤم و قولهم: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا» إلخ. تهديد منهم للرسل.

و المعنى: قالت أصحاب القرية لرسلهم، إنا تشأمنا بكم و نقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ و لم تكفوا عن الدعوة لنرجمنكم بالحجارة و ليصلن إليكم و ليقعن بكم منا عذاب أليم.

قوله تعالى: «قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية.

و قوله: «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» الطائر فى الأصل هو الطير و كان يتشاءم به ثم توسع و استعمل فى كل ما يتشاءم به، و ربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث، و ربما يستعمل فى البخت الشقى الذى هو أمر موهوم يرونه مبدأ لشقاء الإنسان و حرمانه من كل خير.

و كيف كان فقوله: «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ظاهر معناه أن الذى ينبغى أن تتشأموا به هو معكم و هو حالة إعراضكم عن الحق الذى هو التوحيد و إقبالكم إلى الباطل الذى هو الشرك.

و قيل: المعنى طائركم أى حظكم و نصيبكم من الخير و الشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر، هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثانى لكن قوله بعد: «أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» أنسب بالنسبة إلى المعنى الأول.

و قوله: «أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ» استفهام توبيخى و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى و رجوع الكل إليه و نحوهما و جزاء الشرط محذوف فى الكلام تلويحا إلى أنه مما لا ينبغى أن يذكر أو يتفوه به و التقدير أ إن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشنيع و الصنيع الفظيع من التطير و التوعد.

و قوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» أى مجاوزون للحد فى المعصية و هو إضراب عما تقدم و المعنى بل السبب الأصلى فى جحودكم و تكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف و مجاوزة الحد.

قوله تعالى: «وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة إلى مبدإ مفروض، و قد بدلت القرية فى أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها و السعى هو الإسراع فى المشى.

و وقع نظير هذا التعبير فى قصة موسى و القبطى و فيها «وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى» فقدم «رجل» هناك و أخر هاهنا و لعل النكتة فى ذلک أن الاهتمام هناک بمجيء الرجل و إخباره موسى بائتمار الملإ لقتله فقدم الرجل ثم أشير إلى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر و إبلاغه فجيء بقوله: «يَسْعى» حالا مؤخرا بخلاف ما هاهنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه و بين الرسل فى أمر الدعوة فقدم «مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ» و أخر الرجل و سعيه.

و قد اشتد الخلاف بينهم فى اسم الرجل و اسم أبيه و حرفته و شغله و لا يهمنا الاشتغال بذلک فى فهم المراد و لو توقف عليه الفهم بعض التوقف لأشار سبحانه فى كلامه إليه و لم يهمله.

و إنما المهم هو التدبر فى حظه من الإيمان فى هذا الموقف الذى انتهض فيه لتأييد الرسل (ع) و نصرتهم فقد كان على ما يعطيه التدبر فى المنقول من كلامه رجلا نور الله سبحانه قلبه بنور الإيمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبده لا طمعا فى جنة أو خوفا من نار بل لأنه أهل للعبادة و لذلک كان من المكرمين و لم يصف الله سبحانه فى كلامه بهذا الوصف إلا ملائكته المقربين و عباده المخلصين، و قد خاصم القوم فخصمهم و أبطل ما تعلق به القوم من الحجة على عدم جواز عبادة الله سبحانه و وجوب عبادة آلهتهم و أثبت وجوب عبادته وحده و صدق الرسل فى دعواهم الرسالة ثم آمن بهم.

قوله تعالى: «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» بيان لقوله: «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» و فى وضع قوله: «مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فى هذه الآية موضع قوله: «الْمُرْسَلِينَ» فى الآية السابقة إشعار بالعلية و بيانها أن عدم جواز اتباع قائل فى قوله إنما يكون لأحد أمرين: إما لكون قوله ضلالا و القائل به ضالا و لا يجوز اتباع الضال فى ضلاله، و إما لأن القول و إن كان حقا و الحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل إليه بكلمة الحق كاقتناء المال و اكتساب الجاه و المقام و نحو ذلک، و أما إذا كان القول حقا و كان القائل بريئا من الغرض الفاسد منزها من الكيد و المكر و الخيانة كان من الواجب اتباعه فى قوله، و هؤلاء الرسل مهتدون فى قولهم:

لا تعبدوا إلا الله، و هم لا يريدون منكم أجرا من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم فى قولهم.

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد و كونه حقا، و الحجة هى قوله: «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ» إلى تمام الآيتين.

و أما أنهم لا يريدون منكم أجرا فلما دل عليه قولهم: «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» و قد تقدم تقريره.

و بهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم: «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» مسوقا لنفى إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلک.

قوله تعالى: «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً- إلى قوله- وَ لا يُنْقِذُونِ» شرع فى استفراغ الحجة على التوحيد و نفى الآلهة فى آيتين و اختار لذلک سياق التكلم وحده إلا فى جملة اعترض بها فى خلال الكلام و هى قوله:

«وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» و ذلک بإجراء الحكم فى نفسه بما أنه إنسان أوجده الله و فطره حتى يجرى فى كل إنسان هو مثله و الأفراد أمثال فقوله: «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ» إلخ. فى معنى و ما للإنسان لا يعبد إلخ. أ يتخذ الإنسان من دونه آلهة إلخ.

و قد عبر عنه تعالى بقوله: «الَّذِي فَطَرَنِي» للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان و إيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإنسان من ذات و صفات و أفعال إليه تعالى و قيامه به و ملكه له فليس للإنسان إلا العبودية محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه فى مقام العبودية و يظهرها بالنسبة إليه تعالى و هذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها.

و هذا هو الذى أشرنا إليه آنفا أن الرجل كان يعبد الله بالإخلاص له لا طمعا فى جنة و لا خوفا من نار بل لأنه أهل للعبادة.

و إذ كان الإيمان به تعالى و عبادته هكذا أمرا لا يناله عامة الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفا أو طمعا أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يريد به إنذارهم بيوم الرجوع و أنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوئ أعمالهم فقوله: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كالمعترضة الخارجة عن السياق أو هى هى.

ثم إن الآيتين حجتان قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية و بنوا على ذلک عبادة الأصنام و أربابها.

توضيح ذلک أنهم قالوا: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شىء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه إلى مقربى حضرته و الأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام و الجن و القديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله فى إيصال الخيرات و دفع الشرور و المكاره.

و الجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان و إن كان لا يحيط علما بالذات المتعالية لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصة به مثل كونه فاطرا له موجدا إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات و إنكار إمكانه مكابرة، و هذا الجواب هو الذى أشار إليه بقوله: «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى».

و عن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت مما أفاضه الله عليهم و الله سبحانه لا يعطيهم ذلک إلا فيما لا تتعلق به منه إرادة حاتمة و لازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال: «ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» يونس ٣ أما إذا أراد الله شيئا إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئا فى المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهة و عدمه سواء فى عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر، و إلى ذلک أشار بقوله: «أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ».

و تعبيره عنه تعالى بالرحمن إشارة إلى سعة رحمته و كثرتها و أن النعم كلها من عنده و تدبير الخير و الشر إليه و يتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى فى الربوبية، إذ لما كان جميع النعم و كذا النظام الجارى فيها، من رحمته و قائمة به من غير استقلال فى شىء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشىء من رحمته و تدبيره تعالى و كانت الربوبية له تعالى وحده و كذا الألوهية.

قوله تعالى: «إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ» تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهة.

قوله تعالى: «إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» من كلام الرجل خطابا للرسل و قوله: «فَاسْمَعُونِ» كناية عن الشهادة بالتحمل، و قوله: «إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» إلخ.

تجديد الشهادة بالحق و تأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: «إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» بعد محاجته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه و ليؤيدهم بإيمانهم بمرأى من القوم و مسمع.

و قيل: إنه خطاب للقوم تأييدا للرسل، و المعنى إنى آمنت بالله فاسمعوا منى فإنى لا أبالى بما يكون منكم على ذلک أو المعنى إنى آمنت بالله فاسمعوا منى و آمنوا به أو أنه أراد به أن يغضبهم و يشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنه رأى أنهم بصدد الإيقاع بهم. هذا.

و فيه أنه لا يلائمه التعبير عن الله سبحانه بقوله: «بِرَبِّكُمْ» فإن القوم ما كانوا يتخذونه تعالى ربا لهم و إنما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه.

و رد بأن المعنى إنى آمنت بربكم الذى قامت الحجة على ربوبيته لكم و هو الله سبحانه. و فيه أنه تقييد من غير مقيد.

قوله تعالى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» الخطاب للرجل و هو- كما يفيده السياق- يلوح إلى أن القوم قتلوه فنودى من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: «وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ» إلخ فوضع قوله: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشارة إلى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم و بين أمره بدخول الجنة أى فصل و انفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة.

و المراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة، و قول بعضهم: إن المراد بها جنة الآخرة و المعنى سيقال له: ادخل الجنة يوم القيامة و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل: إن الله رفعه إلى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حى يتنعم فيها إلى قيام الساعة، و هو تحكم كسابقه.

و قيل: إن القائل: «ادْخُلِ الْجَنَّةَ» هو القوم قالوا له ذاک حين قتله استهزاء و فيه أنه لا يلائم ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد: «قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» إلخ فإن ظاهره أنه تمنى علم قومه بما هو فيه بعد استماع نداء «ادْخُلِ الْجَنَّةَ» و لم يسبق من الكلام ما يصح أن يبتنى عليه قوله ذاک.

و قوله: «قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان بعد تأييده للرسل؟

فقيل: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» ثم قيل: فما ذا كان بعد؟ فقيل: «قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» إلخ و هو نصح منه لقوله ميتا كما كان ينصحهم حيا.

و «بِما» فى قوله: «بِما غَفَرَ لِي» إلخ مصدرية، و قوله: «وَ جَعَلَنِي» عطف على «غَفَرَ» و المعنى بمغفرة ربى لى و جعله إياى من المكرمين.

و موهبة الإكرام و إن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما فى قوله: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ:»، الفجر:- ١٥ و قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ:» الحجرات:- ١٣ فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الإطلاق إلا طائفتين من خلقه: الملائكة الكرام كما فى قوله: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ:» الأنبياء:- ٢٧، و الكاملين فى إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما فى قوله: «أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ:» المعارج:- ٣٥، أو من المخلصين بفتح اللام كما فى قوله: «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ- إلى أن قال- وَ هُمْ مُكْرَمُونَ:» الصافات:- ٤٢.

و الآية من أدلة وجود البرزخ.

قوله تعالى: «وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ» الضميران للرجل، و «مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد قتله، و «مِنْ» الأولى و الثالثة لابتداء الغاية، و الثانية مزيدة لتأكيد النفى.

و الآية توطئة للآية التالية، و هى مسوقة لبيان هوان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه و أنه لا يحتاج فى إهلاكهم إلى عدة و عدة حتى ينزل من السماء جندا من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك فى إهلاك من أهلك من الأمم الماضين و إنما أهلكهم بصيحة واحدة تقضى عليهم.

قوله تعالى: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» أى ما كان الأمر الذى كان سبب إهلاكهم بمشيتنا إلا صيحة واحدة، و تأنيث الفعل لتأنيث الخبر و تنكير «صَيْحَةً» و توصيفها بالوحدة للاستحقار، و الخمود السكون و استئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان سبب إهلاكهم؟ فقيل: إن كانت إلا صيحة واحدة.

و المعنى: كان سبب هلاكهم أيسر أمر و هى صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس و هم عن آخرهم موتى لا يتحركون.

قوله تعالى: «يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» أى يا ندامة العباد و نداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم، و سبب الحسرة ما يتضمنه قوله: «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» إلخ.

و من هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامة الناس و تتأكد الحسرة بكونهم عبادا فإن رد العبد دعوة مولاه و تمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحة الناصح.

و بذلك يظهر سخافة قول من قال: إن المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أو هما جميعا. و كذا قول من قال: إن المراد بالعباد الناس لكن المتحسر هو الرجل.

و ظهر أيضا أن قوله: «يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ» إلخ من قول الله تعالى لا من تمام قول الرجل.

قوله تعالى: «أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ» توبيخ لأولئك الذين نودى عليهم بالحسرة، و «مِنَ الْقُرُونِ» بيان لكم، و القرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد.

و قوله: «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ» بيان لقوله: «كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» ضمير الجمع الأول للقرون و الثانى و الثالث للعباد.

و المعنى: أ لم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية و أنهم مأخوذون بأخذ إلهى لا يتمكنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه؟

و للقوم فى مراجع الضمائر و فى معنى الآية أقوال أخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى: «وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» لفظة «إِنْ» حرف نفى و «كُلٌ» مبتدأ تنوينه عوض عن المضاف إليه، و «لَمَّا» بمعنى إلا، و جميع بمعنى مجموع، و لدينا ظرف متعلق به، و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع، و احتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع.

و المعنى: و ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامة فالآية فى معنى قوله: «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ:» هود- ١٠٣.

(بحث روائى)

فى المجمع، قالوا": بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية- فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له- و هو حبيب صاحب يس فسلما عليه- فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى- ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال: أ معكما آية؟ قالا نعم نحن نشفى المريض- و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن الله تعالى فقال الشيخ: إن لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين قالا: فانطلق بنا إلى منزل نتطلع حاله- فذهب بهما فمسحا ابنه- فقام فى الوقت بإذن الله تعالى صحيحا- ففشا الخبر فى المدينة- و شفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى-.

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فأنهى الخبر إليه فدعاهما- فقال لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى- جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر- إلى عبادة من يسمع و يبصر. قال الملك: و لنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك و آلهتك. قال: قوما حتى أنظر فى أمركما- فأخذهما الناس فى السوق و ضربوهما-.

قال وهب بن منبه: بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية- فأتياها و لم يصلا إلى ملكها و طالت مدة مقامهما- فخرج الملك ذات يوم فكبرا و ذكرا الله- فغضب الملك و أمر بحبسهما- و جلد كل واحد منهما مائة جلدة-

فلما كذب الرسولان و ضربا، بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريين على أمرهما- لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكرا- فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به- فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضى عشرته- و أنس به و أكرمه. ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن- و ضربتهما حين

دعواک إلی غیر دینک- فهل سمعت قولهما؟ قال الملک: حال الغضب بینی و بین ذلک. قال: فإن رأی الملک دعاهما حتی نتطلع ما عندهما-.

فدعاهما الملک فقال لها شمعون: من أرسلکما إلی هاهنا؟ قالا: الله الذی خلق کل شیء لا شریک له. قال: و ما آتاکما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملک حتی جاءوا بغلام مطموس العینین- و موضع عینیه کالجبهۀ فما زالا یدعوان الله- حتی انشق موضع البصر فأخذا بندقتین من الطین- فوضعا فی حدقتیه فصارتا مقلتین یبصر بهما- فتعجب الملک ثم قال شمعون للملک: أ رأیت لو سألت إلهک حتی یصنع صنیعا مثل هذا؟ فیکون لک و لأهلک شرفا. فقال الملک: لیس لی عنک سر إن إلهنا الذی نعبده- لا یضر و لا ینفع-.

ثم قال الملک للرسولین: إن قدر إلهکما علی إحیاء میت آمنا به و بکما. قالا: إلهنا قادر علی کل شیء فقال، الملک- إن هاهنا میتا مات منذ سبعۀ أیام لم ندفنه- حتی یرجع أبوه و کان غائبا فجاءوا بالمیت- و قد تغیر و أروح فجعلا یدعوان ربهما علانیۀ- و جعل شمعون یدعو ربه سرا فقام المیت- و قال لهم إنی قد مت منذ سبعۀ أیام- و أدخلت فی سبعۀ أودیۀ من النار- و أنا أحذرکم ما أنتم فیه فآمنوا بالله فتعجب الملک، فلما علم شمعون أن قوله أثر فی الملک- دعاه إلی الله فآمن- و آمن من أهل مملکته قوم و کفر آخرون.

قال: و قد روی مثل ذلک العیاشی بإسناده عن الثمالی و غیره عن أبی جعفر و أبی عبد الله (ع) إلا أن فی بعض الروایات: بعث الله الرسولین إلی أهل أنطاکیۀ- ثم بعث الثالث- و فی بعضها أن عیسی أوحی الله إلیه أن یبعثهما- ثم بعث وصیه شمعون لیخلصهما، و أن المیت الذی أحیاه الله بدعائهما کان ابن الملک- و أنه قد خرج من قبره ینفض التراب عن رأسه- فقال له: یا بنی ما حالک؟ قال: کنت میتا فرأیت رجلین ساجدین- یسألان الله تعالی أن یحیینی. قال: یا بنی فتعرفهما إذا رأیتهما؟ قال: نعم- فأخرج الناس إلی الصحراء- فکان یمر علیه رجل بعد رجل- فمر أحدهما بعد جمع کثیر فقال: هذا أحدهما. ثم مر الآخر فعرفهما و أشار بیده إلیهما- فآمن الملک و أهل مملکته.

و قال ابن إسحاق: بل کفر الملک و أجمع هو و قومه علی قتل الرسل فبلغ ذلک حبیبا و هو علی باب المدینۀ الأقصی فجاء یسعی إلیهم یذکرهم و یدعوهم إلی طاعۀ الرسل.

أقول: سیاق آیات القصۀ لا یلائم بعض هذه الروایات.

و فی الدر المنثور، أخرج أبو داود و أبو نعیم و ابن عساکر و الدیلمی عن أبی لیلی قال: قال رسول الله ص: الصدیقین ثلاثۀ- حبیب النجار مؤمن آل یاسین الذی قال: یا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِینَ، و حزقیل مؤمن آل فرعون الذی قال: أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ یَقُولَ رَبِّیَ اللَّهُ، و علی بن أبی طالب و هو أفضلهم.

أقول: و رواه أيضا عن البخارى فى تأريخه عن ابن عباس عنه (ص) و لفظه: الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون- و حبيب النجار صاحب آل ياسين- و على بن أبى طالب.

فى المجمع، عن تفسير الثعلبى بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن النبى ص قال: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين- على بن أبى طالب و صاحب يس- و مؤمن آل فرعون فهم الصديقون و على أفضلهم.

أقول: و روى هذا المعنى فى الدر المنثور، عن الطبرانى و ابن مردويه و ضعفه عن ابن عباس عنه (ع) و لفظه: السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون- و السابق إلى عيسى صاحب يس- و السابق إلى محمد ص على بن أبى طالب.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٤٧]

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧)

(بيان)

بعد ما قص عليهم قصة أصحاب القرية و ما آل إليه أمرهم فى الشرك و تكذيب الرسل و وبخهم على الاستهانة بأمر الرسالة، و أنذرهم بنزول العذاب عليهم كما نزل على المكذبين من القرون الأولى، و بأنهم جميعا محضرون للحساب و الجزاء.

أورد آيات من الخلق و التدبير تدل على ربوبيته و ألوهيته تعالى وحده لا شريك له ثم وبخهم على ترك النظر فى آيات الوحدانية و المعاد و الإعراض عنها و الاستهزاء بالحق و الإمساك عن الإنفاق للفقراء و المساكين.

قوله تعالى: «وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» يذكر سبحانه فى الآية و اللتين بعدها آية من آيات الربوبية و هى تدبير أمر أرزاق الناس و تغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب و التمر و العنب و غيرها.

فقوله: «وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها» و إن كان ظاهره أن الآية هى الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله: «وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا» إلخ و مسوقتان للإشارة إلى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياة فى الأرض الميتة و تبديلها حبا و ثمرا يأكلون من ذلک فالآية بنظر هى الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها و تمام تدبير أرزاق الناس بها.

و قوله: «وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا» أى و أخرجنا من الأرض بإنبات النبات حبا كالحنطة و الشعير و الأرز و سائر البقولات.

و قوله: «فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» تفريع على إخراج الحب و بالأكل يتم التدبير، و ضمير «فَمِنْهُ» للحب.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ» قال الراغب: الجنة كل بستان ذى شجر تستر بأشجاره الأرض انتهى. و النخيل جمع نخل و هو معروف، و الأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة و هى الكرم و على الثمرة.

و قال الراغب: العين الجارحة- إلى أن قال- و يستعار العين لمعان هى موجودة فى الجارحة بنظرات مختلفة- إلى أن قال- و يقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء انتهى، و التفجير فى الأرض شقها لإخراج المياه، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ اللام لتعليل ما ذكر فى الآية السابقة أى جعلنا فيها جنات و فجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

و قوله: «مِنْ ثَمَرِهِ» قيل: الضمير للمجعول من الجنات و لذا أفرد و ذكر و لم يقل: من ثمرها أى من ثمر الجنات، أو من ثمرهما أى من ثمر النخيل و الأعناب.

و قوله: «وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ» العمل هو الفعل و الفرق بينهما- على ما ذكره الراغب- أن أكثر ما يستعمل العمل فى الفعل المقارن للقصد و الإرادة، و لذلک يشذ استعماله فى الحيوان و الجماد، و لذلک أيضا يتصف العمل بالصلاح و خلافه فيقال. عمل صالح و عمل طالح و لا يتصف بهما مطلق الفعل.

و «ما» فی «وَ ما عَمِلَتْهُ» نافیهٔ و المعنی و لم یعمل الثمر بأیدیهم حتی یشارکونا فی تدبیر الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه و تتمیم التدبیر به من دون أن نستعین بهم فما بالهم لا یشکرون.

و یؤید هذا المعنی قوله فی أواخر السورهٔ و هو یمتن علیهم بخلق الأنعام لتدبیر أمر رزقهم و حیاتهم: «أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَیْدِینا أَنْعاماً- إلی أن قال- وَ مِنْها یَأْکُلُونَ وَ لَهُمْ فِیها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا یَشْکُرُونَ».

و احتمل بعضهم کون «ما» فی «وَ ما عَمِلَتْهُ» موصولهٔ معطوفهٔ علی «ثَمَرِهِ» و المعنی لیأکلوا من ثمره و من الذی عملته أیدیهم من ثمره کالخل و الدبس المأخوذین من التمر و العنب و غیر ذلک.

و هذا الوجه و إن عده بعضهم أوجه من سابقه لیس بذاک فإن المقام مقام بیان آیات دالهٔ علی ربوبیته تعالی بذکر أمور من التدبیر یخصه تعالی و لا یناسبه ذکر شیء من تدبیر الغیر معه و تتمیم الحجهٔ بذلک، و لو کان المراد ذکر عملهم بما أنه منته إلی خلقه تعالی و جزء من التدبیر العام کان الأنسب أن یقال: و ما هدیناهم إلی عمله أو ما یؤدی معناه لینتفی به توهم الشرکهٔ فی التدبیر.

و احتمل بعضهم کون «ما» نکرهٔ موصوفهٔ معطوفهٔ علی «ثَمَرِهِ» و المعنی لیأکلوا من ثمره و من شیء عملته أیدیهم. هذا و یرد علیه ما یرد علی سابقه.

و قوله: «أَ فَلا یَشْکُرُونَ» توبیخ و استقباح لعدم شکره و شکره تعالی منهم علی هذا التدبیر إظهارهم جمیل نعمه بذکره قولا و فعلا أی إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبیره و هو العبادهٔ فشکره تعالی هو الاعتراف بربوبیته و اتخاذه إلها معبودا.

قوله تعالی: «سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ» إنشاء لتنزیهه تعالی، لما ذکر عدم شکرهم له علی ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار، و إنما عمل ذلک بتزویج بعض النبات بعضا کما قال: «وَ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ:» ق:- ۷ أشار إلی ما هو أعظم و أوسع من خلق أزواج النبات و هو خلق الأزواج کلها و تنظیم العالم المشهود باستیلاد کل شیء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه کالذکر و الأنثی من الإنسان و الحیوان و النبات، و کل فاعل و منفعل یتلاقیان فینتجان بتلاقیهما أمرا ثالثا، أشار تعالی إلی ذلک فنزه نفسه بقوله: «سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها» إلخ. فقوله: «سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها» إنشاء تسبیح علی ما یعطیه السیاق لا إخبار.

و قوله: «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» هو و ما بعده بيان للأزواج و الذى تنبت الأرض هو النبات و لا يبعد شموله الحيوان و قد قال تعالى فى الإنسان و هو من أنواع الحيوان «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً:» نوح:- ١٧ و يؤيد ذلک أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان فى عدد الأزواج.

و قوله: «وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أى الناس، و قوله: «وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» و هو الذى يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه.

و ربما قيل فى الآية: إن المراد بالأزواج الأنواع و الأصناف، و لا يساعد عليه الآيات التى تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ:» الذاريات:- ۴۹ و المقارنة و نوع من التألف و التركب من لوازم مفهوم الزوجية.

قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الأنثى فى الحيوانات المتزاوجة: زوج، و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج كالخف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، قال: و قوله: «خَلَقْنا زَوْجَيْنِ» فبين أن كل ما فى العالم زوج من حيث إن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفک بوجه من تركيب. انتهى.

فزوجية الزوج هى كونه مفتقرا فى تحققه إلى تألف و تركب و لذلک يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره إلى قرينه، و كذا يقال لمجموع القرينين: زوج لافتقاره فى تحققه زوجا إلى التألف و التركب فكون الأشياء أزواجا مقارنة بعضها بعضا لإنتاج ثالث أو كونه مولدا من تألف اثنين.

قوله تعالى: «وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» آية أخرى من آيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوى للعالم الإنسانى مذكورة فى أربع آيات.

و لا شک أن الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار، و السلخ فى الآية بمعنى الإخراج و لذلک عدى بمن و لو كان بمعنى النزع كما فى قولنا: سلخت الإهاب عن الشاة تعين ١٣١ تعديه بعن دون من.

و يؤيد ذلک أنه تعالى عبر فى مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال فى مواضع من كلامه: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ:» الحج:- ۶۱ فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار فى الليل اعتبارا كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا.

كأن الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففى الكلام نوع من الاستعارة بالكناية.

و لعل فيما ذكرناه من الوجه كفاية عما أطنبوا فيه من البحث فى معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل.

قوله تعالى: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» جريها حركتها و قوله «لِمُسْتَقَرٍّ لَها» اللام بمعنى إلى أو للغاية، و المستقر مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان، و المعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهى إلى مستقرها أى استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

و أما جريها و هو حركتها فظاهر النظر الحسى يثبت لها حركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضى بالعكس و تكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع.

و كيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجرى ما دام النظام الدنيوى على حاله حتى تستقر و تسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام، و هذا المعنى يرجع بالمال إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت و غيرهم: «و الشمس تجرى لا مستقر لها» كما قيل.

و أما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجرى الدال على الانتقال من مكان إلى مكان.

و قوله: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» أى الجرى المذكور تقدير و تدبير ممن لا يغلبه غالب فى إرادته و لا يجهل جهات الصلاح فى أفعاله.

قوله تعالى: «وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول و الظاهر أن المراد به المنازل الثمانية و العشرون التى يقطعها القمر فى كل ثمانية و عشرين يوما و ليلة تقريبا.

و العرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته و هو عود أصفر مقوس يشبه الهلال، و القديم العتيق.

و قد اختلفت الأنظار فى معنى الآية للاختلاف فى تركيبها، و أقرب التقديرات من الفهم قول من قال: إن التقدير و القمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفر لونه.

تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريبا و ما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستنارة و لا يزال كذلك حتى يعود إلى الوضع الأول و يعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض فى صورة هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود إلى ما كان عليه أوله.

و لاختلاف صوره آثار بارزة فى البر و البحر و حياة الناس على ما بين فى الأبحاث المربوطة.

فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة إلى الأرض و أهلها دون حاله فى نفسه و دون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط.

و من هنا لا يبعد أن يقال فى قوله تعالى: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها» إن المراد بقوله: «تَجْرِى» الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية و الفصلية و السنوية و هى حالها بالنسبة إلينا، و بقوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَها» حالها فى نفسها و هى سكونها بالنسبة إلى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل: و آية لهم أن الشمس على استقرارها تجرى عليهم و قد دبر العزيز العليم بذلک كينونة العالم الأرضى و حياة أهله و الله أعلم.

قوله تعالى: «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» لفظة ينبغى تدل على الترجح و نفى ترجح الإدراک من الشمس نفى وقوعه منها، و المراد به أن التدبير ليس مما يجرى يوما و يقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل و لا منقوض حتى ينقضى الأجل المضروب منه تعالى لذلک.

فالمعنى أن الشمس و القمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرک الشمس القمر حتى يختل بذلک التدبير المعمول بهما و لا الليل سابق النهار و هما متعاقبان فى التدبير فيتقدم الليل و النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان.

و لم يتعرض لنفى إدراک القمر للشمس و لا لنفى سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهى عن الاختلال و الفساد فنفى إدراک ما هو أعظم و أقوى و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر، و يعلم منه حال العكس و نفى سبق الليل الذى هو افتقاده للنهار الذى هو ليله و الليل مضاف إليه متأخر طبعا منه و يعلم به حال العكس.

و قوله: «وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» أى كل من الشمس و القمر و غيرهما من النجوم و الكواكب يجرون فى مجرى خاص به كما تسبح السمكة فى الماء فالفلک هو المدار الفضائى الذى يتحرک فيه الجرم العلوى، و لا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس و القمر و الليل و النهار و إن كان لا يوجد فى كلامه تعالى ما يشهد على ذلک.

و الإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء فى قوله «يَسْبَحُونَ» لعله للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما فى قوله: «ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِىَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ:» حم السجدة:- ١١.

و للمفسرين فى جمل الآية آراء أخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقوف عليها فليراجع المفصلات.

قوله تعالى: «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» قال الراغب: الذرية أصلها الصغار من الأولاد، و تقع فى التعارف على الصغار و الكبار معا، و يستعمل للواحد و الجمع و أصله للجمع. انتهى، و الفلك السفينة، و المشحون المملوء.

آية أخرى من آيات ربوبيته تعالى و هو جريان تدبيره فى البحر حيث يحمل ذريتهم فى الفلك المشحون بهم و بأمتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة و غيرها، و لا حامل لهم فيه و لا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى و الخواص التى يستفيدون منها فى ركوب البحر أمور مسخرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته إليه تعالى لم تغن طائلا.

و إنما نسبت الحمل إلى الذرية دونهم أنفسهم فلم يقل: أنا حملناهم لإثارة الشفقة و الرحمة.

قوله تعالى: «وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ» المراد به- على ما فسروه- الأنعام قال تعالى: «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ:» الزخرف:- ١٢ و قال: «وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ:» المؤمن- ٨٠.

و فسر بعضهم الفلك المذكور فى الآية السابقة بسفينة نوح (ع) و ما فى هذه الآية بالسفن و الزوارق المعمولة بعدها و هو تفسير ردىء و مثله تفسير ما فى هذه الآية بالإبل خاصة.

و ربما فسر ما فى هذه الآية بالطيارات و السفن الجوية المعمولة فى هذه الأعصار و التعميم أولى.

قوله تعالى: «وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ» الصريخ هو الذى يجيب الصراخ و يغيث، الاستغاثة و الإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

و الآية متصلة بقوله السابق: «أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» أى إن الأمر إلى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث و لا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: «إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ» استثناء مفرغ و التقدير لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الأمور إلا لرحمة منا تنالهم و لتمتع إلى حين الأجل المسمى الذى قدرناه لهم.

قوله تعالى: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتقوا معصيته فى حالكم الحاضرة و ما قدمتم من المعاصى، أو عذاب الشرك و المعاصى التى أنتم مبتلون بها و ما خلفتم وراءكم، أو اتقوا ما بين أيديكم من الشرك و المعاصى فى الحياة الدنيا و ما

خلفكم من العذاب فى الآخرة، أعرضوا عنه و لم يستجيبوا له على ما هو دأبهم فى جميع الآيات التى ذكروا بها.

و من هنا يظهر أولا أن المراد بما بين أيديهم و ما خلفهم الشرک و المعاصى التى هم مبتلون بها فى حالهم الحاضرة و ما كانوا مبتلين به قبل، أو العذاب الذى استوجبوه بذلک و المآل واحد، أو الشرک و المعاصى فى الدنيا و العذاب فى الآخرة و هو أوجه الوجوه.

و ثانيا: أن حذف جواب إذا للدلالة على أن حالهم بلغت من الجرأة على الله و الاستهانة بالحق مبلغا لا يستطاع معها ذكر ما يجيبون به داعى الحق إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترک أسفا و لا يذكر، و قد دل عليه بقوله: «وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ».

قوله تعالى: «وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ» المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة و الذكر، و أيضا هى أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسية، أو تكون آية معجزة كالقرآن فهم معرضون عنها جميعا.

قوله تعالى: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» إلى آخر الآية كان قوله:

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ» متعرضا لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله و هى أحد ركنى الدين الحق، و هذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا إلى الشفقة على خلق الله و هو الركن الآخر و معلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

فقوله: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» يتضمن دعوتهم إلى الإنفاق على الفقراء و المساكين من أموالهم و فى التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأن المالک لها حقيقة هو الله الذى رزقهم بها و سلطهم عليها، و هو الذى خلق الفقراء و المساكين و أقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الذى لا يفتقرون إليه فلينفقوا عليهم و ليحسنوا و ليجملوا و الله يحب الإحسان و جميل الفعل.

و قوله: «قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ» جوابهم للدعوة إلى الإنفاق، و إنما أظهر القائل- الذين كفروا- و مقتضى المقام الإضمار للإشارة إلى أن كفرهم بالحق و إعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذى دعاهم إلى الاعتذار بمثل هذا العذر المبنى على الإعراض عما تدعو إليه الفطرة من الشفقة على خلق الله و إصلاح ما فسد فى المجتمع كما أن الإظهار فى قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للإشارة إلى أن قائل «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» هم الذين آمنوا.

و فی قولهم: «أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ» إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم: «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» بعنوان أنه مما يشاؤه الله و يريده حكما دينيا فردوه بأن إرادة الله لا تتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أی وسع فی رزقهم و جعلهم أغنياء.

و هذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعية المبنية على الابتلاء و الامتحان و هداية العباد إلى ما فيه صلاح حالهم فی دنياهم و آخرتهم و من الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان، و بين الإرادة التكوينية التی لا تتخلف عن المراد و من المعلوم أن مشيئة الله و إرادته المتعلقة بإطعام الفقراء و الإنفاق عليهم من المشيئة التشريعية دون التكوينية فتخلفها فی مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا و تمردهم عما أمروا به لا على عدم تعلق الإرادة به و كذب مدعيه.

و هذه مغالطة بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنية و قد حكى الله سبحانه ذلک عنهم فی قوله: «وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ:» النحل:- ۳۵، و قوله: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ:» الأنعام:- ۱۴۸، و قوله: «وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ:» الزخرف:- ۲۰.

و قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِی ضَلالٍ مُبِينٍ» من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أی إنكم فی ضلال مبين فی دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق و شاء منا ذلک.

(بحث روائی)

فی المجمع، روی عن علی بن الحسين زين العابدين و أبی جعفر الباقر و جعفر الصادق (ع): «لا مستقر لها» بنصب الراء.

و فی الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و أحمد البخاری و مسلم و أبو داود و الترمذی و النسائی و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقی عن أبی ذر قال: سألت رسول الله ص عن قوله تعالى: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها» قال: مستقرها تحت العرش.

أقول: و قد روی هذا المعنى عن أبی ذر عنه (ص) من طرق الخاصة و العامة مختصرة و مطولة، و فی بعضها أنها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتى تصل إلى ما دون العرش فتسجد و تستأذن فی الطلوع و تبقى على ذلک حتى تكسى نورا و يؤذن لها فی الطلوع.

و الرواية إن صحت فهی مؤولة.

و فی روضة الکافی، بإسناده عن سلام بن المستنیر عن أبی جعفر (ع) قال: إن الله عز و جل خلق الشمس قبل القمر- و خلق النور قبل الظلمة.

و فی المجمع، روی العیاشی فی تفسیره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال: کنت بخراسان حیث اجتمع الرضا- و الفضل بن سهل و المأمون فی الإیوان بمرو- فوضعت المائدة فقال الرضا (ع): إن رجلا من بنی إسرائیل سألنی بالمدینة فقال: النهار خلق قبل أم اللیل؟ فما عندکم؟ قال: و أداروا الکلام فلم یکن عندهم فی ذلک شیء-.

فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحک الله. قال: نعم من القرآن أم من الحساب- قال له الفضل من جهة الحساب- فقال: قد علمت یا فضل إن طالع الدنیا السرطان- و الکواکب فی مواضع شرفها- فزحل فی المیزان و المشتری فی السرطان- و المریخ فی الجدی و الشمس فی الحمل- و الزهرة فی الحوت و عطارد فی السنبلة- و القمر فی الثور- فتکون الشمس فی العاشر وسط السماء- فالنهار قبل اللیل، و من القرآن قوله تعالی: «وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ» أی اللیل قد سبقه النهار.:

أقول: نقل الآلوسی فی روح المعانی، هذا الحدیث

ثم قال: و فی الاستدلال بالآیة بحث ظاهر، و أما بالحساب فله وجه فی الجملة و رأی المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار و له موافقة لما ذکر و الذی یغلب علی الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضا أجل من أن یستدل بالآیة علی ما سمعت من دعواه انتهی.

و قد اختلط علیه الأمر فی تحصیل حقیقة معنی اللیل و النهار.

توضیحه: أن اللیل و النهار متقابلان تقابل العدم و الملکة کالعمی و البصر فکما أن العمی لیس مطلق عدم البصر حتی یکون الجدار مثلا أعمی لعدم البصر فیه بل هو عدم البصر مما من شأنه أن یتصف بالبصر کالإنسان کذلک اللیل لیس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحیة من نواحی الأرض بنور الشمس و من المعلوم أن عدم الملکة یتوقف فی تحققه علی تحقق الملکة المقابلة له قبله حتی یتعین بالإضافة إلیه فلو لا البصر لم یتحقق عمی و لو لا النهار لم یتحقق اللیل.

فمطلق اللیل بمعناه الذی هو به لیل مسبوق الوجود بالنهار و قوله: «وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ» و إن کان ناظرا إلی الترتیب المفروض بین النهر و اللیالی و أن هناک نهارا و لیلا و نهارا و لیلا و أن واحدا من هذه اللیالی لا یسبق النهار الذی بجنبه.

لكنه تعالى أخذ فى قوله: «وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ» مطلق الليل و نفى تقدمه على مطلق النهار و لم يقل: إن واحدا من الليالى الواقعة فى هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع فى الترتيب قبله.

فالحكم فى الآية مبنى على ما يقتضيه طبيعة الليل و النهار بحسب التقابل الذى أودعه الله بينهما و قد استفيد منه الحكم بانحفاظ الترتيب فى تعاقب الليل و النهار فإن كل ليل هو افتقاد النهار الذى هو يتلوه فلا يتقدم عليه و إلى هذا يشير (ع) بعد ذكر الآية بقوله: «أى الليل قد سبقه النهار» يعنى أن سبق النهار الليل هو خلقه قبله و ليس كما يتوهم أن هناك نهر أو ليالى موجودة ثم يتعين لكل منها محله.

و قول المعترض: «و أما بالحساب فله وجه فى الجملة» لا يدرى وجه قوله: فى الجملة و هو وجه تام مبنى على تسليم أصول التنجيم صحيح بالجملة على ذلك التقدير لا فى الجملة.

و كذا قوله: «و رأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار و له موافقة لما ذكر» لا محصل له لأن دائرة نصف النهار و هى الدائرة المارة على القطبين و نقطة ثالثة بينهما غير متناهية فى العدد لا تتعين لها نقطة معينة فى السماء دون نقطة أخرى فيكون كون الشمس فى إحداهما نهارا للأرض دون أخرى.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ»: روى الحلبى عن أبى عبد الله (ع) قال: معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب- و ما خلفكم من العقوبة.

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٦٥]

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

(بيان)

لما فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالا فى أول الكلام شرع فى تفصيل خبر المعاد و ذكر كيفية قيام الساعة و إحضارهم للحساب و الجزاء و ما يجزى به أصحاب الجنة و ما يجازى به المجرمون كل ذلك تبيينا لما تقدم من إجمال خبر المعاد.

قوله تعالى: «وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنى على الإنكار، و لعله لذلک جىء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة و لأن النبى ص و المؤمنين كثيرا ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة و ينذرونهم به، و الوعد يستعمل فى الخير و الشر إذا ذكر وحده و إذا قابل الوعيد تعين الوعد للخير و الوعيد للشر.

قوله تعالى: «ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ» النظر بمعنى الانتظار، و المراد بالصيحة نفخة الصور الأولى بإعانة السياق، و توصيف الصيحة بالوحدة للإشارة إلى هوان أمرهم على الله جلت عظمته فلا حاجة إلى مئونة زائدة، و «يَخِصِّمُونَ» أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة و المخاصمة.

و الآية جواب لقولهم: «مَتى هذَا الْوَعْدُ» مسوقة سوق الاستهزاء بهم و الاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلک، و المعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون: متى هذا الوعد فى سؤالهم عن وقت الوعد المنبئ عن الانتظار إلا صيحة واحدة- يسيرة علينا بلا مئونة و لا تكلف- تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا و ينجوا منها و الحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

قوله تعالى: «فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» أى يتفرع على هذه الصيحة بما أنها تفاجئهم و لا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية- على أن الموت يعمهم جميعا دفعة فلا يترک منهم أحدا يوصى إليه- و لا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا فى الخارج من بيوتهم مثلا.

قوله تعالى: «وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» هذه هى نفخة الصور الثانية التى بها الإحياء و البعث، و الأجداث جمع جدث و هو القبر و النسل الإسراع فى المشى و فى التعبير عنه بقوله: «إِلى رَبِّهِمْ» تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» البعث الإقامة، و المرقد محل الرقاد و المراد به القبر، و تعبيرهم عنه تعالى بالرحمن نوع استرحام و قد كانوا يقولون فى الدنيا: «وَ مَا الرَّحْمنُ:» الفرقان:- ۶۰، و قوله: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» عطف على قوله: «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» و الجملة الفعلية قد تعطف على الاسمية.

و قولهم: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبنى على إنكارهم البعث و هم فى الدنيا و رسوخ أثر الإنكار و الغفلة عن يوم الجزاء فى نفوسهم و هم لا يزالون مستغرقين فى الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجأهم الورود فى عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم الفزع الأكبر و الدهشة التى لا تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون أولا إلى دعوة الويل و الهلاك كما كان ذلك دأبهم فى الدنيا عند الوقوع فى المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذى أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شىء.

ثم ذكروا ما كانت الرسل (ع) يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث و الجزاء فشهدوا بحقية الوعد و استعصموا بالرحمة فقالوا: «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» على ما هو دأبهم فى الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق و إظهار الذلة و الاعتراف بالظلم و التقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ».

و بما تقدم ظهر أولا وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا.

و ثانيا وجه سؤالهم عمن بعثهم من مرقدهم الظاهر فى أنهم جاهلون به أولا ثم إقرارهم بأنه الذى وعده الرحمن و تصديقهم المرسلين فيما بلغوا عنه تعالى.

و يظهر أيضا أن قوله: «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» إلخ و قوله: «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» إلخ. من قولهم.

و قيل: قوله: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» عطف على مدخول «ما» و «ما» موصولة أو مصدرية و «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» إلخ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم: «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا»؟. و غير خفى أنه خلاف الظاهر و خاصة على تقدير كون «ما» مصدرية و لو كان قوله: «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» إلخ. جوابا من الله أو الملائكة لقولهم: «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» لأجيب بالفاعل دون الفعل لأنهم سألوا عن فاعل البعث! و ما قيل: إن العدول إليه لتذكير كفرهم و تقريعهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل هذا. لا يغنى طائلا.

و ظهر أيضا أن قوله: «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ» مبتدأ و خبر، و قيل «هذا» صفة لمرقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتق و «ما» مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق و هو بعيد عن الفهم.

قوله تعالى: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهلة.

و التعبير بقوله: «لَدَيْنا» لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى فى هذا اليوم يقضى بينهم قضاء عدلا و يحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا.

و قوله: «وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» عطف تفسير لقوله: فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» و هو فى الحقيقة بيان برهانى لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم، و لا يتصور مع ذلک ظلم لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشىء فى موضعه ضرورة.

و خطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة و إحضاره و إحضار من فيه بحسب العناية الكلامية، و ليس- كما توهم- حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق.

و المخاطب بقوله: «وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» السعداء و الأشقياء جميعا.

و ما قيل عليه أن الحصر يأبى التعميم فإنه تعالى يوفى المؤمنين أجورهم و يزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة مدفوع بأن الحصر فى الآية نازل إلى جزاء العمل و أجره و ما يدل من الآيات على المزيد كقوله: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ:» ق:- ٣٥ أمر وراء الجزاء و الأجر خارج عن طور العمل.

و ربما أجيب عنه بأن معنى الآية أن الصالح لا ينقص ثوابه و الطالح لا يزاد عقابه فإن الحكمة تنافيه أما زيادة الثواب و نقض العقاب فلا مانع منه أو أن المراد بقوله: «لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

و فيه أن مدلول الآية لو كان ما ذكر اندفع الإشكال لكن الشأن فى دلالتها على ذلک.

قوله تعالى: «إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فاكِهُونَ» الشغل الشأن الذى يشغل الإنسان و يصرفه عما عداه، و الفاكه من الفكاهة و هى التحدث بما يسر أو التمتع و التلذذ و لا فعل له من الثلاثى المجرد على ما قيل.

و قيل: «فاكِهُونَ» معناه ذوو فاكهة نحو لابن و تامر و يبعده أن الفاكهة مذكورة فى السياق و لا موجب لتكرارها.

و المعنى أن أصحاب الجنة فى هذا اليوم فى شأن يشغلهم عن كل شىء دونه و هو التنعم فى الجنة متمتعون فيها.

قوله تعالى: «هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِى ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ» الظلال جمع ظل و قيل جمع ظلة بالضم و هى السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلک، و الأريكة كل ما يتكأ عليه من وسادة أو غيرها.

و المعنى: هم أى أصحاب الجنة و أزواجهم من حلائلهم المؤمنات فى الدنيا أو من الحور العين فى ظلال أو أستار من الشمس و غيرها متكئون على الأرائک اتكاء الأعزة.

قوله تعالى: «لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ» الفاكهة ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح و الأترج و نحوهما، و قوله: «يَدَّعُونَ» من الادعاء بمعنى التمنى أى لهم فى الجنة فاكهة و لهم فيها ما يتمنونه و يطلبونه.

قوله تعالى: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» سلام مبتدأ محذوف الخبر و التنكير للتفخيم و التقدير سلام عليهم أو لهم سلام، و «قَوْلًا» مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير أقوله قولا من رب رحيم.

و الظاهر أن السلام منه تعالى و هو غير سلام الملائكة المذكور فى قوله: «وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ:» الرعد:- ٢٤.

قوله تعالى: «وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» أى و نقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة و هو تمييزهم منهم يوم القيامة و إنجاز لما فى قوله فى موضع آخر: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ:»- ص:- ٢٨، و قوله أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ:» الجاثية:- ٢١.

قوله تعالى: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» العهد الوصية، و المراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته، و قد علل النهى عن طاعته بكونه عدوا مبينا لأن العدو لا يريد بعدوه خيرا.

و قيل: المراد بعبادته عبادة الآلهة من دون الله و إنما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله و تزيينه، و هو تكلف من غير موجب.

و إنما وجه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى و استكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته و أوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال: «أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا:» الإسراء:- ٦٢.

و أما عهده تعالى و وصيته إلى بنى آدم أن لا يطيعوه فهو الذى وصاهم به بلسان رسله و أنبيائه و حذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: «يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ:» الأعراف:- ٢٧: و قوله: «وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ:» الزخرف:- ٦٢.

و قيل: المراد بالعهد عهده تعالى إليهم فى عالم الذر حيث قال: «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى». و قد عرفت مما قدمناه فى تفسير آية الذر أن العهد الذى هناك هو بوجه عين العهد الذى وجه إليهم فى الدنيا.

قوله تعالى: «وَ أَنِ اعْبُدُونِی هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ» عطف تفسیر لما سبقه، و قد تقدم کلام فی معنی الصراط المستقیم فی تفسیر قوله: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ» من سورة الفاتحة.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْکُمْ جِبِلًّا کَثِیراً أَ فَلَمْ تَکُونُوا تَعْقِلُونَ» الجبل الجماعة و قیل: الجماعة الکثیرة و الکلام مبنی علی التوبیخ و العتاب.

قوله تعالى: «هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ» أی کان یستمر علیکم الإیعاد بها مرة بعد مرة بلسان الأنبیاء و الرسل (ع) و أول ما أوعد الله سبحانه بها حین قال لإبلیس: «إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ:» الحجر:- ۴۳ و فی لفظ الآیة إشارة إلی إحضار جهنم یومئذ.

قوله تعالى: «اصْلَوْهَا الْیَوْمَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ» الصلا. اللزوم و الاتباع، و قیل: مقاساة الحرارة و یظهر بقوله: «بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ» أن الخطاب للکفار و هم المراد بالمجرمین.

قوله تعالى: «الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلی أَفْواهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ» أی یشهد کل منها بما کانوا یکسبونه بواسطته فالأیدی بالمعاصی التی کسبوها بها و الأرجل بالمعاصی الخاصة بها علی ما یعطیه السیاق.

و من هنا یظهر أن کل عضو ینطق بما یخصه من العمل و أن ذکر الأیدی و الأرجل من باب الأنموذج و لذا ذکر فی موضع آخر السمع و البصر و الفؤاد کما فی سورة الإسراء الآیة ۳۶. و فی موضع آخر الجلود کما فی سورة حم السجدة الآیة ۲۰، و سیأتی بعض ما یتعلق به من الکلام فی تفسیر سورة حم السجدة إن شاء الله.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «ما یَنْظُرُونَ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً» الآیة- قال: ذلک فی آخر الزمان یصاح فیهم صیحة- و هم فی أسواقهم یتخاصمون- فیموتون کلهم فی مکانهم- لا یرجع أحد منهم إلی منزله و لا یوصی بوصیة، و ذلک قوله عزوجل: «فَلا یَسْتَطِیعُونَ تَوْصِیَةً وَ لا إِلی أَهْلِهِمْ یَرْجِعُونَ».

و فی المجمع، فی الحدیث": تقوم الساعة و الرجلان قد نشرا ثوبهما یتبایعان- فما یطویانه حتی تقوم الساعة، و الرجل یرفع أکلته إلی فیه حتی تقوم الساعة، و الرجل یلیط[۳] حوضه لیسقی ماشیته- فما یسقیها حتی تقوم.:

أقول: و روی هذا المعنی فی الدر المنثور عن أبی هریرة عن النبی ص و کذا عن قتادة عنه (ص) مرسلا.

---

[۳] (۱) لاطه أي ملأه.

و فی تفسیر القمی،": و قوله عز و جل: «وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلی رَبِّهِمْ یَنْسِلُونَ» قال:. من القبور: و

فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله: تعالی «یا وَیْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» فإن القوم کانوا فی القبور- فلما قاموا حسبوا أنهم کانوا نیاما و قالوا: یا وَیْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا. قالت الملائکة: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ.

و فی الکافی، بإسناده إلی أبی بصیر عن أبی عبد الله (ع) قال: کان أبو ذر رحمه الله یقول فی خطبته: و ما بین الموت و البعث- إلا کنومة نمتها ثم استیقظت منها.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْیَوْمَ فِی شُغُلٍ فاکِهُونَ» قال یفاکهون النساء و یلاعبونهن.

و فیه، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله عز و جل: «فِی ظِلالٍ عَلَی الْأَرائِکِ مُتَّکِؤُنَ» الأرائک السرر علیها الحجال.

و فیه،": فی قوله عز و جل: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِیمٍ» قال: السلام منه هو الأمان. و قوله: «وَ امْتازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ» قال: إذا جمع الله الخلق یوم القیامة- بقوا قیاما علی أقدامهم حتی یلجمهم العرق فینادون: یا رب حاسبنا و لو إلی النار- قال:

فیبعث الله ریاحا فتضرب بینهم و ینادی مناد: «وَ امْتازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ» فیمیز بینهم فصار المجرمون فی النار، و من کان فی قلبه الإیمان صار إلی الجنة.

أقول: و قد ورد فی بعض الروایات أن الله سبحانه یتجلی لهم فیشتغلون به عن کل من سواه ما دام التجلی و المراد به ارتفاع کل حجاب بینهم و بین ربهم دون الرؤیة البصریة التی لا تتحقق إلا بمقارنة الجهات و الأبعاد فإنها مستحیلة فی حقه تعالی.

و فی اعتقادات الصدوق، قال (ع): من أصغی إلی ناطق فقد عبده- فإن کان الناطق عن الله فقد عبد الله، و إن کان الناطق عن إبلیس فقد عبد إبلیس.

و فی الکافی، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبی جعفر (ع) فی حدیث قال: و لیست تشهد الجوارح علی مؤمن- إنما تشهد علی من حقت علیه کلمة العذاب- فأما المؤمن فیعطی کتابه بیمینه قال الله عز و جل-: «فَمَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتابَهُمْ- وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا:» الإسراء:- ۷۱.

و فی تفسیر العیاشی، عن مسعد بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جده قال: قال أمیر المؤمنین (ع) فی خطبة یصف هول یوم القیامة: ختم الله علی الأفواه فلا تکلم- و تکلمت الأیدی و شهدت الأرجل- و نطقت الجلود بما عملوا فلا یکتمون الله حدیثا.

أقول: و فی هذا المعنی روایات أخر یأتی بعضها فی ذیل تفسیر قوله تعالی: «شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ» الآیة: حم السجدة:- ۲۰، و تقدم بعضها فی الکلام علی قوله: «إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا:» الإسراء:- ۳۶.

[سورة یس (۳۶): الآیات ۶۶ الی ۸۳]

وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّی یُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلی مَکانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِیًّا وَ لا یَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلا یَعْقِلُونَ (۶۸) وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ (۶۹) لِیُنْذِرَ مَنْ کانَ حَیًّا وَ یَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَی الْکافِرِینَ (۷۰) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَیْدِینا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِکُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَکُوبُهُمْ وَ مِنْها یَأْکُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِیها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا یَشْکُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ (۷۴) لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ (۷۶) أَ وَ لَمْ یَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۷۸) قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ (۷۹) الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰) أَ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلی وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِیمُ (۸۱) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۸۲) فَسُبْحانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳)

(بیان)

بیان تلخیصی للمعانی السابقة فی سیاق آخر ففیه تهدید لهم بالعذاب، و الإشارة إلی أنه (ص) رسول و أن کتابه ذکر و قرآن و لیس بشاعر و لا کتابه بشعر، و الإشارة إلی خلق الأنعام آیة للتوحید، و الاحتجاج علی المیعاد.

قوله تعالی: «وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّی یُبْصِرُونَ» قال فی مجمع البیان،: الطمس محو الشیء حتی یذهب أثره فالطمس علی العین کالطمس علی الکتاب و مثله الطمس علی المال و هو إذهابه حتی لا یقع علیه إدراک، و أعمی مطموس و طمیس و هو أن یذهب الشق الذی بین الجفنین، انتهی.

فقوله: «وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ» أى لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل أبصارهم.

و قوله: «فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ» أى أرادوا السبق إلى الطريق الواضح الذى لا يخطئ قاصده و لا يظل سالكه فلم يبصروه و لن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» كناية عن الامتناع.

و قول بعضهم: إن المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوک طريق الحق و عدم اهتدائهم إليها، لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: «وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ» قال فى المجمع،: و المسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة و خنازير و قال: و المكانة و المكان واحد. انتهى. و المراد بمسخهم على مكانتهم تشوية خلقهم و هم قعود فى مكانهم الذى هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج و تكلف بل بمجرد المشية فهو كناية عن كونه هينا سهلا عليه تعالى من غير أى صعوبة.

و قوله: «فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ» أى مضيا فى العذاب و لا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب و المسخ فالمضى و الرجوع كنايتان عن الرجوع إلى حال السلامة و البقاء على حال العذاب و المسخ.

و قيل: المراد مضيهم نحو مقاصدهم و رجوعهم إلى منازلهم و أهليهم و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: «وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ» التعمير التطويل فى العمر، و التنكيس تقليب الشىء بحيث يعود أعلاه أسفله و يتبدل قوته ضعفا و زيادته نقصا و الإنسان فى عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفا و علمه جهلا و ذكره نسيانا.

و الآية فى مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين و المراد أن الذى ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم و على أن يمسخهم على مكانتهم.

و فى قوله: «أَ فَلا يَعْقِلُونَ» توبيخهم على عدم التعقل و حثهم على التدبر فى هذه الأمور و الاعتبار بها.

قوله تعالى: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ عطف و رجوع إلى ما تقدم فى صدر السورة من تصديق رسالة النبى ص و كون كتابه تنزيلا من عنده تعالى.

فقوله: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ» نفى أن يكون علمه الشعر و لازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه و يمتنع من قوله للنهى من الله متوجه إليه، و لا أن النازل من القرآن ليس بشعر و إن أمكنه (ص) أن يقوله.

و به يظهر أن قوله: «وَ ما يَنْبَغِي لَهُ» فى مقام الامتنان عليه بأنه نزهه عن أن يقول شعرا فالجملة فى مقام دفع الدخل و المحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصا فيه و لا أنه تعجيز له بل لرفع درجته و تنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع فى معرض تزيين المعانى بالتخيلات الشعرية الكاذبة التى كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع فى النفس، و تنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع فى السمع، فلا ينبغى له (ص) أن يقول الشعر و هو رسول من الله و آية رسالته و متن دعوته القرآن المعجز فى بيانه الذى هو ذكر و قرآن مبين.

و قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» تفسير و توضيح لقوله: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ» بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ» إلخ من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر و قرآن مبين.

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنه ذكر مقروء من الله ظاهر ذلك.

قوله تعالى: «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» تعليل متعلق بقوله: «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ» و المعنى و لم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حيا «إلخ» أو متعلق بقوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ» إلخ و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا و قرآنا مبينا نزلناه إليه لينذر من كان حيا «إلخ» و مآل الوجهين واحد.

و الآية- كما ترى- تعد غاية إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيا- و هو كناية عن كونه يعقل الحق و يسمعه- و حقيقة القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما فى صدر السورة من الآيات فى هذا المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ» ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى و تدبيره للعالم الإنسانى و هى نظيرة ما تقدم فى ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب و الثمرات و تفجير العيون.

و المراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم فى خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدى كناية عن الاختصاص.

و قوله: «فَهُمْ لَها مالِكُونَ» تفريع على قوله: «خَلَقْنا لَهُمْ» فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهى مخلوقة لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهى الاختصاص إلى الملك فإن الملك الاعتبارى الذى فى المجتمع من شعب الاختصاص.

و بذلک یظهر ما فی قول بعضهم: إن فی تفرع قوله: «فَهُمْ لَها مالِکُونَ» علی قوله: «خَلَقْنا لَهُمْ» خفاء، و الظاهر تفرعها علی مقدر و التقدیر خلقناها لهم فهم لها مالکون، و أنت خبیر بعدم خفاء تفرعها علی «خَلَقْنا لَهُمْ» و عدم الحاجة إلی تقدیر.

و قیل: الملک بمعنی القدرة و القهر، و فیه أنه مفهوم من قوله بعد: «وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ» و التأسیس خیر من التأکید.

قوله تعالی: «وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَکُوبُهُمْ وَ مِنْها یَأْکُلُونَ» تذلیل الأنعام جعلها منقادة لهم غیر عاصیة و هو تسخیرها لهم، و الرکوب بفتح الراء الحمولة کالإبل و البقر، و قوله: «وَ مِنْها یَأْکُلُونَ» أی من لحمها یأکلون.

قوله تعالی: «وَ لَهُمْ فِیها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا یَشْکُرُونَ» المراد بالمنافع ما ینتفعون به من شعرها و وبرها و جلودها و غیر ذلک، و المشارب جمع مشرب- مصدر میمی بمعنی المفعول- و المراد بها الألبان، و الکلام فی معنی الشکر کالکلام فیما تقدم فی قوله: «وَ ما عَمِلَتْهُ أَیْدِیهِمْ أَ فَلا یَشْکُرُونَ».

و معنی الآیات الثلاث: أ و لم یعلموا أنا خلقنا لأجلهم و لتدبیر أمر حیاتهم الدنیا أنعاما من الإبل و البقر و الغنم فتفرع علی ذلک أنهم مالکون لها ملکا یصحح لهم أنواع تصرفاتهم فیها من غیر معارض، و ذللناها لهم بجعلها مسخرة لهم منقادة غیر عاصیة فمنها رکوبهم الذی یرکبونه، و منها أی من لحومها یأکلون، و لهم فیها منافع ینتفعون بأشعارها و أوبارها و جلودها و مشروبات من ألبانها یشربونها أ فلا یشکرون الله علی هذا التدبیر الکامل الذی یکشف عن ربوبیته لهم؟ أ و لا یعبدونه شکرا لأنعمه؟.

قوله تعالی: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ» ضمائر الجمع للمشرکین، و المراد بالآلهة الأصنام أو الشیاطین و فراعنة البشر دون الملائکة المقربین و الأولیاء من الإنسان لعدم ملاءمة ذیل الکلام: «وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» لذلک.

و إنما اتخذوهم آلهة رجاء أن ینصروا من ناحیتهم لأن عامتهم تتخذ إلها زعما منهم أن تدبیر أمره مفوض إلی من اتخذه إلها من خیر أو شر فیعبده العابد منهم لیرضیه بعبادته فلا یسخط فیقطع النعمة أو یرسل النقمة.

قوله تعالی: «لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» أی لا یستطیع هؤلاء الآلهة الذین اتخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشرکین لأنهم لا یملکون شیئا من خیر أو شر.

و قوله: «وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» الظاهر أن أول الضمیرین للمشرکین و ثانیهما للآلهة من دون الله و المراد أن المشرکین جند للآلهة و ذلک أن من لوازم معنی الجندیة التبعیة و الملازمة و المشرکون هم المعدودون أتباعا لآلهتهم مطیعین لهم دون العکس.

و المراد بالإحضار فی قوله: «مُحْضَرُونَ» الإحضار للجزاء یوم القیامة قال تعالی: «وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ:» الصافات:- ۱۵۸ و قال: «وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّی لَکُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِینَ:» الصافات:- ۵۷. و محصل المعنی لا یستطیع الآلهة المتخذون نصر المشرکین و هم أی المشرکون لهم أی لآلهتهم أتباع مطیعون محضرون معهم یوم القیامة.

و أما قول القائل: إن المعنی أن المشرکین جند لآلهتهم معدون للذب عنهم فی الدنیا، أو إن المعنی و هم أی الآلهة لهم أی للمشرکین جند محضرون لعذاب المشرکین یوم القیامة لأنهم وقود النار التی یعذب بها المشرکون، أو محضرون لعذابهم إظهارا لعجزهم عن النصر أو لإقناط المشرکین عن شفاعتهم فهی معان ردیئة.

قوله تعالی: «فَلا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ» الفاء لتفریع النهی عن الحزن علی حقیقة اتخاذهم الآلهة من دون الله رجاء للنصر أی إذا کان هذا حقیقة حالهم أن الذین استنصروهم لا یستطیعون نصرهم أبدا و أنهم سیحضرون معهم للعذاب فلا یحزنک قولهم ما قالوا به من الشرک فإنا لسنا بغافلین عنهم حتی یعجزونا أو یفسدوا علینا بعض الأمر بل نعلم ما یسرون من أقوالهم و ما یعلنون، و فی ترکیب الآیة بعض أقوال ردیئة أضربنا عنه.

قوله تعالی: «أَ وَ لَمْ یَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ» رجوع إلی ما تقدم من حدیث البعث و الاحتجاج علیه إثر إنکارهم، و لا یبعد أن یکون بیانا تفصیلیا لقولهم المشار إلیه فی قوله تعالی: «فَلا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ» إلخ و المراد بالرؤیة العلم القطعی أی أ و لم یعلم الإنسان علما قاطعا أنا خلقناه من نطفة، و تنکیر نطفة للتحقیر و الخصیم المصر علی خصومته و جداله.

و الاستفهام للتعجب و المعنی من العجیب أن الإنسان یعلم أنا خلقناه من نطفة مهینة فیفاجئه أنه خصیم مجادل مبین.

قوله تعالی: «وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ» الرمیم البالی من العظام، و «نَسِیَ خَلْقَهُ» حال من فاعل ضرب، و قوله: «قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ» بیان للمثل الذی ضربه الإنسان، و لذلک جیء به مفصولا من غیر عطف لأن الکلام فی معنی أن یقال: فما ذا ضرب مثلا؟ فقیل قال من یحیی العظام و هی رمیم.

و المعنی و ضرب الإنسان لنا مثلا و قد نسی خلقه من نطفة لأول مرة، و لو کان ذاکره لم یضرب المثل الذی ضربه و هو قوله: «من یحیی العظام و هی بالیة؟» لأنه کان یرد علی نفسه و یجیب عن المثل الذی ضربه بخلقه الأول کما لقنه الله تعالی لنبیه (ص) جوابا عنه.

قوله تعالى: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» تلقين الجواب للنبى ص.

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائى و تقييده بقوله « «أَوَّلَ مَرَّةٍ» للتأكيد، و قوله: «وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» إشارة إلى أنه تعالى لا ينسى و لا يجهل شيئا من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مرة و هو لا يجهل شيئا مما كانت عليه قبل الموت و بعده فإحياؤه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت القدرة و انتفاء الجهل و النسيان.

قوله تعالى: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ» بيان لقوله: «الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ» و الإيقاد إشعال النار.

و الآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشىء الموات شيئا ذا حياة و الحياة و الموت متنافيان و الجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر الذى يقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون و تشعلون النار، و المراد به على المشهور بين المفسرين شجر[٤] المرخ و العفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن الله فحصول الحى من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء و هما متضادان.

قوله تعالى: «أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» الاستفهام للإنكار و الآية بيان للحجة السابقة المذكورة فى قوله: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ» إلخ. ببيان أقرب إلى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات و الأرض الذى هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ:» المؤمن:- ٥٧.

فالآية فى معنى قولنا: و كيف يمكن أن يقال: إن الله الذى خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة و عجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة للألباب و العالم الإنسانى جزء يسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بلى و إنه خلاق عليم.

و المراد بمثلهم قيل: هم و أمثالهم و فيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة و العرف.

و قيل: المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حد قولهم: مثلك غنى عن كذا أى أنت غنى عنه، و فيه أنه لو كان كناية لصح التصريح به لكن لا وجه لقولنا: أ و ليس الذى خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلقهم فإن الكلام فى بعثهم لا فى خلقهم و المشركون معترفون بأن خالقهم هو الله سبحانه.

---

[٤] (١) المرخ بالفتح فالسكون و الخاء المعجمة، و العفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الآخر.

و قيل: ضمير «مِثْلَهُمْ» للسماوات و الأرض فإنهما تشملان ما فيهما من العقلاء فأعيد إليهما ضمير العقلاء تغليبا فالمراد أن الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله.

و فيه أن المقام مقام إثبات بعث الإنسان لا بعث السماوات و الأرض. على أن الكلام فى الإعادة و خلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بل بالضرورة.

فالحق أن يقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان،.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس و بدن، و البدن فى هذه النشأة فى معرض التحلل و التبدل دائما فهو لا يزال يتغير أجزاؤه و المركب ينتفى بانتفاء أحد أجزائه فهو فى كل آن غيره فى الآن السابق بشخصه و شخصية الإنسان محفوظة بنفسه- روحه- المجردة المنزهة عن المادة و التغيرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت و الفساد.

و المتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن و أنها محفوظة حتى ترجع إلى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ:» الم السجدة:- ١١.

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذى البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصية بالنفس و هى واحدة بعينها.

و لما كان استبعاد المشركين فى قولهم: «مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» راجعا إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم و أما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس و الأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديدا، فيكون الأشخاص الموجودين فى الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى:» الأحقاف- ٣٣ فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال: عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى و لم يقل: على أن يحيى أمثال الموتى.

قوله تعالى: «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد و تبين أنه تعالى لا يحتاج فى إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه فى إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

و قد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة فى كلامه فقال: «إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ:» النحل:- ۴۰، و قال: «وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ:» البقرة:- ۱۱۷.

فقوله: «إِنَّما أَمْرُهُ» الظاهر أن المراد بالأمر الشأن، و قوله فى آية النحل المنقولة آنفا: «إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ» إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول و هو الأمر اللفظى بلفظة كن إلا أن التدبر فى الآيات يعطى أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهى عند إرادة خلق شىء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شىء من الأشياء هذا القول دون غيره، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جىء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على القول بمعنى ما يقابل النهى.

و قوله: «إِذا أَرادَ شَيْئاً» أى إذا أراد إيجاد شىء كما يعطيه سياق الآية و قد ورد فى عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله: «إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[۵] و لا ضير فالقضاء هو الحكم و القضاء و الحكم و الإرادة من الله شىء واحد و هو كون[۶] الشىء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة.

و قوله: «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ» خبر إنما أمره أى يخاطبه بكلمة كن و من المعلوم أن ليس هناك لفظ يتلفظ به و إلا احتاج فى وجوده إلى لفظ آخر و هلم جرا فيتسلسل و لا أن هناك مخاطبا ذا سمع يسمع الخطاب فيوجد به لأدائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشىء من غير حاجة إلى شىء آخر وراء ذاته المتعالية و من غير تخلف و لا مهل.

و به يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قال: الظاهر أن هناك قولا لفظيا هو لفظ كن و إليه ذهب معظم السلف و شئون الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام و الخصام. انتهى.

و ذلك أن ما ذكره من كون شئونه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجة العقلية القطعية بطلت بذلك المعارف الدينية من أصلها فصحة الكتاب مثلا بما يفيده من المعارف الحقيقية إنما تثبت بالحجة العقلية فلو بطلت الحجة العقلية بكتاب أو سنة أو شىء آخر مما يثبت هو بها لكان ذلك الدليل المبطل مبطلا لنفسه أولا فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

---

[۵] (۱) البقرة: ۱۷، آل عمران: ۴۷، مريم: ۳۵، المؤمن: ۶۸.

[۶] (۲) فإن هذه الإرادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل.

و من المعلوم أن ليس هناک إلا الله عز اسمه و الشیء الذی یوجد لا ثالث بینهما و إسناد العلیة و السببیة إلی- إرادته دونه تعالی و الإرادة صفة فعلیة منتزعة من مقام الفعل کما تقدم- یستلزم انقطاع حاجة الأشیاء إلیه تعالی من رأس لاستیجابه استغناء الأشیاء بصفة منتزعة منها عنه تعالی و تقدس.

و من المعلوم أن لیس هناک أمر ینفصل عنه تعالی یسمی إیجادا و وجودا ثم یتصل بالشیء فیصیر به موجودا و هو ظاهر فلیس بعده تعالی إلا وجود الشیء فحسب.

و من هنا یظهر أن کلمة الإیجاد و هی کلمة کن هی وجود الشیء الذی أوجده لکن بما أنه منتسب إلیه قائم به و أما من حیث انتسابه إلی نفسه فهو موجود لا إیجاد و مخلوق لا خلق.

و یظهر أیضا أن الذی یفیض منه تعالی لا یقبل مهلة و لا نظرة و لا یتحمل تبدلا و لا تغیرا، و لا یتلبس بتدریج و ما یتراءی فی الخلق من هذه الأمور إنما یتأتی فی الأشیاء فی ناحیة نفسها لا من الجهة التی تلی ربها سبحانه و هذا باب ینفتح منه ألف باب.

و فی الآیات للتلویح إلی هذه الحقائق إشارات لطیفة کقوله تعالی: «کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ:» آل عمران:- ۵۹، و قوله تعالی: «وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ کَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ:» القمر: ۵۰، و قوله تعالی: «وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً:» الأحزاب:- ۳۸ إلی غیر ذلک.

و قوله فی آخر الآیة: «فَیَکُونُ» بیان لطاعة الشیء المراد له تعالی و امتثاله لأمر «کُنْ» و لبسه الوجود.

قوله تعالی: «فَسُبْحانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ» الملکوت مبالغة فی معنی الملک کالرحموت و الرهبوت فی معنی الرحمة و الرهبة.

و انضمام الآیة إلی ما قبلها یعطی أن المراد بالملکوت الجهة التالیة له تعالی من وجهی وجود الأشیاء، و بالملک الجهة التالیة للخلق أو الأعم الشامل للوجهین. و علیه یحمل قوله تعالی: «وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْراهِیمَ مَلَکُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ:» الأنعام:- ۷۵. و قوله: «أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ:» الأعراف:- ۱۸۵: و قوله: «قُلْ مَنْ بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ:» المؤمنون:- ۸۸.

و جعل الملکوت بیده تعالی للدلالة علی أنه متسلط علیها لا نصیب فیها لغیره.

و مآل المعنی قوله: «فَسُبْحانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ» تنزیهه تعالی عما استبعدوا منکرین للمعاد لغفلتهم عن أن ملکوت کل شیء بیده و فی قبضته.

و قوله: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» خطاب لعامة الناس من مؤمن و مشرک، و بيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه.

و العاقبه للمتقين